الفطرة البشرية وآراء العلماء فيها

محمد البيومي عبد الواحد الشيخ

خلق الله سبحانه الإنسان وميزه بنعمة العقل وأودع فيه نفساً . فإن فعل خيراً حكمنا على نفسه بالخيرية وإن قام بشر حكمنا بأنه غير صالح ومن هنا .

إختلف علماء الأخلاق ولا يزالون مختلفين فى طبيعة الفطرة الإنسانية من حيث استعدادها لقبول الخير والشر ، هل هى :

١ — خيرة بالطبع .
٢ — أم شريرة بالطبع .
٣ — أم خلقت وفيها استعداد للناحيتين (الخير والشر) .

هذه آراء ثلاثة فى الفطرة البشرية وقد قال بالرأى الأول : فيلسوف اليونان سقراط فهو يرى (أن للخير أصلا ثابتاً لدينا أو بعبارة أخرى أن الخير يعرف بالضمير الذى يهيب بنا صوته إن أعمل هذا واترك ذاك هذا الصوت كان يهمس فى سمعه همساً رقيقاً له أثره كنغمات القيثارة فى أذان المتصوف وأحيانا كان يمنعه أن يستمع لأى صوت سواه، هذه الأصوات التى تكون أوامرها قوانين غير مكتوبة تنال موافقة الناس جميعاً لأنها عامة وإن لم يشتركوا فى وضعها)(١) .

وقال بخيرية الفطرة أيضاً الرواقيون (إن الله والعالم شىء واحد له مظهران مختلفان فالعالم هو المادة والله هو القوة التى تجعل فيه الحكمة

---

(١) محاورات أفلاطون (١٤٥ — ١٤٩) خانية وسباى .

والنظام والإنسان ليس إلا جزءاً من هذا العالم أى من الطبيعة العامة التى هى الله وهو خير)(١).

وإذا نظرنا إلى هذا الرأى نجده يميل إلى التفاؤل ، والتفاؤل ولاشك جميل ولكن الإفراط فى التفاؤل هو الذى يعيبه ، وإذا سرنا مع المتفائلين إلى نهاية الطريق في خيرة الفطرة فما هى النتائج ؟

أولا : ستكون الحياة رتيبة إلى حد الجمود فلا تقدم ولا جديد .

ثانياً : توقف عمل العقل لأن كل شيء ثابت لا تغيير فيه .

ثالثاً إبطال عمل المرشدين والمربين على مر التاريخ .

الرأى الثانى : أن الإنسان خلق شريراً ويظهر هذا جلياً فى المذهبين الهنديين : البراهمة والبوذية التى تلتها .

وتعنى البراهمة ، (الدعوة لطاعة برهما) أى الإله الأعلى وهى توصى باحتقار الحياة وبالفناء بمحض الإرادة لأن البرهمى يجب عليه أن ينغمس ويغمر نفسه فى أعماق الإله برهما بواسطة الطاعة له والإعراض عن الحياة ومغرياتها الدنيا ولذائذها ورياضة النفس بالزهد والتقشف والتأمل فى عزلة وسكون)(٢) .

وليس هذا الرأى بأقل من سابقه فهو يجنح إلى التشاؤم ولا يقل فى النتائج أيضاً .

---

(١) قصة الفلسفة ولديورانت ص ٢١٧ مطبعة المعارف بيروت .

(٢) تاريخ النظريات الأخلاقية للأستاذ أبو بكر ذكرى ص ٩

الرأى الثالث : أخذ موقف الإعتدال وهو أن فطرة الإنسان خلقها الله وجعلها مستعدة للخير والشر معاً .

وهذا الرأى يؤيده خالق النفس فى القرآن الكريم قال تعالى (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها)(١) .

وقال : (إناهديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً)(٢) ، وفى القرآن أيضاً مايؤيد أن النفس خلقت أقرب ما تكون فى أصلها إلى السلامة والإستقامة قال تعالى : ولقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم)(٣) ، وفى الحديث (كل مولود يولد على الفطرة)(٤) .

ومعنى الحديث أن كل مولود من البشر إنما يولد فى أصل خلقته على الفطرة أى الجبلة السليمة والطبع المستعد لقبول الدين وعبادة الله الواحد ولو ترك على حاله لاستمر على لزوم حالته تلك ولم يفارقها بأى حال إلى غيرها لأن هذا الدين موجود حسنه فى العقول ويسره فى النفوس وإنما يعدل عنه إلى غيره لأنه من النشوء والتقليد فلو سلم المولود من تلك الآفات لم يعتقد غيره)(٥) .

وهذا الرأى الذى لا يجنح إلى ناحية الخير والشر على الإطلاق هو ما نختاره ونؤيده فله محاسن منها :

أولا : أنه لا يجنح إلى ناحية الإفراط أو التفريط .

---

(١) الشمس ٧ ، ٨
(٢) الإنسان ٣
(٣) السنين ٤
(٤) شرح السنة لإبن محمد الحسن البغوى .
(٥) خلق المسلم للشيخ الغزالى .

ثانياً : أنه لا يجعل من الإنسان ملاكا لا يأتى منـه الشر ولا شـيطاناً لا يرجى منه الخير بل يجعله فى المكان الوسط .

ثالثاً : لا يبطل عمل المرشدين والمصلحين على مر العصور، ولو لم يكن إلا تأيد القرآن الـكريم لهذا الرأى لـكفى ذلك للأخذ به وقبوله .

وفقنا الله للعمل بما يرضيه .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

محمد البيومى عبد الواحد الشيخ
مدرس مساعد
بقسم العقيدة والفلسفة